

الفصل السابع

الخروج من الذات: الفضيلة والمعنى

«لا بد أنك وحيد هنا».

«هذا ليس صحيحًا؛ فأنا لديّ أصدقاء، إنهم دُمى، أصدقائي هم دُمى، وأنا من صنعهم؛ إنها مجرد هواية، وأنا مهندس جينات».

(بريس وسيباستيان، من فيلم بليد رانر Blade Runner)

الإرثان

في أحد أيام عام 1889م اختفى جدي جاكوب في ظرف عصيب؛ إذ كانت زوجته الشابة آنذاك حاملاً بابنهما إدوارد، لم يعرف أحد ما حدث لجاكوب تحديداً، ربما قُتل؛ والأمر الأكثر احتمالاً أنه ذهب بعيداً، وتخلّى عن عائلته، وقد أظهرت بعض الأدلة أنه قضى أيامه الأخيرة في دار للرعاية بتكساس، وهذا ما اقتنع به إدوارد.

كانت المرارة التي يشعر بها إدوارد لخيانة والده واضحةً، ناهيك عن العديد من العوارض الصحية والحظ السيئ، تاركاً في نهاية المطاف شخصين متوفيين، وحياةً أخرى بائسة، وأذىً كبيراً للأشخاص كثر. الكل أجمع على أن اختفاء جاكوب خلّف معاناةً كبيرةً امتدت آثارها أربعة أجيال على الأقل، وبحسب أحفاده، فإن هذا هو إرثه الوحيد، ولا نعرف شيئاً آخر عنه.

يوجد جدُّ آخر هو بيلي مكلور الذي أخذ بيد الفتاة زادا التي أصبحت فيما بعدُ زوجةً لإدوارد، والتي أخذت على عاتقها تنشئة والدي، كان بيلي رجلاً واسع الاطلاع، ومعروفاً في جنوب أوهايو بمهاراته الفائقة في المناظرة، وكذلك بأمانته وكرمه، وقد أفادت العائلة بأنه كان قادراً على أخذ قرض من أي مصرف بمجرد مصافحة المسؤول عن الأمر.

لقد كلّفته تلك الصفات الأعمال التجارية للعائلة، واثنين من المخازن العامة، ونزلاً صغيراً؛ لأنه على ما يبدو سحب الكثير من حسابه الائتماني، ثم أقرضه لأقربائه الذين لم يتمكنوا من التسديد؛ ونتيجةً لذلك فقد وُلد أبي في فقر مدقع.

لا أعرف كمَّ الحقائق المتعلقة ببيلي التي وجدت طريقها إلى ثنايا هذا الكتاب، ولكنَّ المؤكّد أن بعض آراء زادا مثبتة في الفصل الأخير، ترك بيلي لأحفاده إرثاً ثقافياً وروحياً ساعد العائلة على تجاوز أوضاعها السيئة والمصاعب الأخرى التي أودت بحياة إدوارد، لقد نعمت أربعة أجيال بهذه الثروة الحقيقية وأكثر.

لم يكن هذان الرجلان سعيدين في حياتهما، ولم تظهر أهمية هذا الأمر في نهاية المطاف، ولكنَّ المهم في رأيي هو: ما الذي دفع كلُّ منهما إلى التصرف على هذا النحو؟ ماذا ترك كلُّ منهما لمن جاء بعده؟ هل تصرفوا على نحو جيد أم سيئ؟

أولوية الفضيلة

لقد رأينا أن الرفاه لا يشمل الفضيلة بالضرورة، فقد يتمكن حتى الأشخاص السيئون، مثل جنكيز خان، من تحقيق الشهرة والازدهار، ولكنَّ هذا لا يعني أن الفضيلة غير مهمة.

لا تُعدُّ الفضيلة رهاناً خاسراً من وجهة النظر الشخصية، ويبدو أن معظم الآباء يدركون ذلك، ويحاولون تنشئة أطفالهم ليعيشوا حياةً لائقةً، فهُم يعتقدون جازمين أن قيم الأمانة والعدل والعطف والولاء تُقدِّم لهم خدمات جلييلة، وبوجه عام فإن الناس لا يحبون مصاحبة الأشخاص القساة غلاظ القلوب الذين لا يوثق بهم، وقد رأينا في الفصل الخامس أن الاهتمام والعمل من أجل الآخرين يجلب سعادةً أكبر، وعلى أي حال فإن معظم الناس يلتزمون بمنظومة من القيم الأخلاقية، ونحن نُقدِّر كثيراً قيم الأمانة والولاء واللطف والعدل، وقد يكون التصرف خلاف هذه القيم دليلاً على فشلنا؛ فالحياة التي تخلو من القيم والمثل لا معنى لها.

ولكنَّ ذلك كله لا يعني أن التجرُّد من هذه القيم لا يجعل المرء أكثر سعادةً، أو أفضل حالاً، أو يحول دون أن يحيا الشخص السيئ حياةً جيدةً، وقد وجد أتباع أرسطو وغيرهم ممن يعتقدون بفوائد الفضيلة أن تنازلاتٍ

من هذا القبيل مثيرة للقلق، ويتمثل القلق في بعض الأحيان في أننا لا نتعامل مع الفضيلة أو الأخلاق بجدية لو اعترفنا بأن الناس يمكن أن يستفيدوا من كونهم لا أخلاقيين، ولكننا لا نستطيع تعميم ذلك على الإطلاق، فقد أخفق عدد قليل من المفكرين في منح الفضيلة قصب السبق عند مقاربتهم فكرة الحياة الكريمة، وبالرغم من ذلك اتفق معظم الفلاسفة على ما يمكن تسميته أولوية الفضيلة.

تتبعاً للفضيلة مكان الصدارة مُتقدِّمةً على القيم الأخرى جميعها في الحياة؛ فقبول التصرفات السيئة أمر مُستبعد حتى لو كان ذلك يجعلنا أكثر سعادةً، أو يجلب لنا المنفعة، يُعدُّ هذا في الأساس موقفاً توافقياً في الفلسفة، وحتى لو كان الفلاسفة يختلفون حول ما تنطوي عليه الفضيلة فإنها تعني بالنسبة إلى معظمهم التعامل وفق منظومة رقيقة من الأخلاق، وحتى في الحالات الاستثنائية فإن التصرف بصورة سيئة يبدو مُستغرباً؛ فنيته - على سبيل المثال - لم يكن من محبي الأخلاق التقليدية، ولكنَّه لم يقف في وجه الأخلاقيين، وفي المقابل سمح الكثير من الفلاسفة - لأسباب خاصة - بتجاوز الضوابط الأخلاقية في بعض الأحيان؛ فإذا كان الالتزام بموعد لحضور فيلم مع الأصدقاء سيكلفك عملاً، فمن المنطقي أن لا تلتزم بهذا الموعد، ولكن، يجب - على الأقل - ألا تتصرف على نحو سيئ.

قد يبدو ممتعاً ذلك النقاش القديم الذي يدور حول مدى أهمية الفضيلة لنا، ولكنَّه قد يكون أحياناً مثل ذرِّ الرماد في العيون؛ وسواءً أمفيداً

كانت الفضيلة أم لم تكن، فإن معظم الآراء تُجمع على أن الفضيلة بما فيها الأخلاق هي على رأس أولوياتنا.

هل ينبغي لك أن تكون سعيداً؟

قد يبدو حديثنا الأنف عن الفضيلة جافاً بعض الشيء؛ لذلك دعونا ننظر هُنيئَةً في ما يعنيه السعي لتحقيق السعادة، من الواضح أن قبول التصرفات السيئة باسم السعادة هو أمر غير وارد؛ ما يعني وجود طريقة ما لاستبعادها.

قد يتوقع المرء أخباراً سيئةً لدى سماعه مقولةً مثل: «لديّ الحق بأن أكون سعيداً»، ويبدو أن هذا القول يهدف إلى تبرير سلوك متكلف؛ إذ نسمع غالباً مطالبات من هذا النوع بالطريقة نفسها، فهل هنالك من سبيل إلى تحقيقها؟ لا، فلا أحد يملك الحق بأن يكون سعيداً، ولا نجد هذا الحق في وثيقة الاستقلال الأمريكي التي تتحدث فقط عن السعي إلى تحقيق السعادة، ولم يقل أيُّ من الفلاسفة بهذا الحق.

لنوضِّح الأمر قليلاً: إذا كان قولنا «لديّ الحق بأن أكون سعيداً» يُماتل قولنا «لديّ الحق بمضغ العلكة»، فإن لدينا المسوخ لنكون سعداء، ولكن ليس هذا ما يعنيه الناس بذلك؛ فقد يقصدون به ما يُماتل قول أحدنا - مثلاً - لمديره في العمل: «يتعين عليك أن تدفع لي لقاء عملي»، فهذا الشخص يرى أن من حقه أن يكون سعيداً، كأنَّ شخصاً ما أو الناس جميعاً مدينون له به.

تبدو فكرة حق المرء في شيء ما مثيرةً للتساؤل، باستثناء معاملته باحترام، وبصرف النظر عن الأسباب الموجبة لذلك، فإن اعتقاد المرء بحقه أن يكون سعيداً هو أمر منطقي جداً، وقد ادّعى بعض المفكرين شيئاً من هذا القبيل حين تحدثوا عن حق المرء في نيل ما يُفضي إلى السعادة، لا حقه في أن يكون سعيداً.

إن سوء الفهم المتعلق بحق الإنسان في أن يكون سعيداً لهو مثال على خطأ أكبر هو الاعتقاد بالاستحقاقات الكونية؛ أي إن الكون يدين لك بحقوق معينة؛ فمثلاً إذا استحق أحدهم المكافأة لأنه فقط إنسان فاضل، فهذا يعني أنه نال احترام العالم كله أجمع، لا احترام شخص واحد فحسب، إن الرد المعتاد على أي ذكر للمخاوف البيئية -مثلاً- يكون شيئاً من مثل: «إنني أعمل بجد، لذلك فأنا أستحق الحصول على أشياء جيدة»، ربما نكون محقين في قولنا إن صاحب منزل في أريزونا يلزمه نظام للري يستهلك كثيراً من المياه بسبب طبيعتها الصحراوية، ولكن حقيقة أن الفرد يستحق ذلك ليست مقنعة حقاً.

الحياة ليست منصفة بالنسبة إلى الجميع، ولن يستطيع بعض الأشخاص -من غير قصد- تحقيق السعادة؛ فبعضهم سيعلقون بزيجات تجعلهم أشخاصاً تعساءً، ولكن من دون أن تُفضي إلى الطلاق، والشباب أيضاً مُعرّضون للموت بنوبة قلبية، وما من أحد يملك تفويضاً بأن يكون سعيداً، ولكن حتى الأشخاص التعساء قد يعيشون حياةً جيدةً، وسناقش هذا الأمر في الفصل الأخير.

وإليك نوع آخر من الأخطاء؛ فقد يستخدم الإنسان الكثير من حقوقه في تسيير مصالحه الخاصة؛ على سبيل المثال: قد يشتري أحدهم قطعة أرض، ثم يُضيق على جيرانه بأن يبني عليها منزلًا كبيرًا جدًا فيجب الرؤية عن أصحاب المحالّ القريبة، مُبعدًا الزبائن عنها، فضلًا عن إزعاجه كلَّ مَنْ يحيط به؛ حيث تسبب آلاته ضجيجًا طوال الوقت ما يخرب البيئة السليمة التي لطالما جذبت انتباه السكان الآخرين في المنطقة، فيضطر بعض الجيران إلى عرض بيوتهم ومحالهم للبيع، وقد يعرف القارئ ما سيقوله هذا الرجل حين يسمع احتجاجات جيرانه: «لديّ حق التصرف بأملاكي كما أريد».

في الحقيقة، قد يكون الرجل مُحقًا بشأن حقوقه، فهو لم ينتهك القانون، وليس لأحد الحق في منعه من فعل ما يريد، أو طلب تعويضات منه، على أي حال الرجل يدعو إلى فهم تام للحقوق؛ فلنعطيه فرصةً يعرض فيها رأيه، ولنعترف أنه استخدم حقه المشروع في بناء مسكنه البغيض. ولكن، هل يُعدُّ هذا دفاعًا عنه؟

إذا نظرنا نظرةً سريعةً إلى بعض حقوقك فقد تظن أن لديك الحق بأن لا تزور زوجتك في المستشفى، وأن تكون قاسي القلب، متبلد المشاعر، متهورًا، وأن تزعج كلَّ مَنْ حولك، وأن تقول لجدتك اللطيفة إنك عجوز شمطاء، وأن تترك جارك يتضور جوعًا وأنت تنعم بكثير من الطعام، وبعبارة موجزة، فإن لك الحق في أن تكون حقيرًا مخادعًا، وإنسانًا مُقرّزًا تعيش حياةً بغيضةً، ولكن بالتأكيد لن يكون هناك ما يبرر أفعالاً كهذه.

إن ما يجعل الحياة والحضارة في تناغم وانسجام هو استعداد الأطراف جميعاً لاحترام حقوق الآخرين؛ فحين تُؤكّد حَقك في عمل شيء ما فإنك توحى إلى الآخرين بأنهم لن يستطيعوا إيقافك عنوةً، أو مطالبتك بأي تعويضات لقاء ذلك، وفي الحقيقة إذا كان المسوغ الوحيد لمنعنا من ممارسة حقوقنا هو الخوف من استخدام القوة إزاء ذلك أو المطالبة بتعويض ما، فسرعان ما تصبح الحياة - وفقاً للفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز (1679م - 1588م) - مقرّفةً، ووحشيةً، وقصيرةً؛ فالمجتمع الذي تسيطر عليه مقولة: «لديّ الحق لتبرير عمل أشياء معينة هو مجتمع متعثر فاشل».

ولما كان هذا النوع من الأفعال (لديّ الحق) يُمثّل مشكلةً ما في المجتمع، فقد اصطلح على تسمية أصحابه بالحمقى أو المتسكمين (assholes)؛ لما يقومون به من تصرفات مشينة تؤذي الآخرين وتضر بمصالحهم، وبالرغم من أن هؤلاء قد يكونون أناساً طيبين لا يُلحِقون الأذى بالآخرين مباشرةً، ويدفعون ما عليهم من ضرائب، ولا يكذبون، فإنهم شديدي التهور، ويصعب العيش معهم؛ لذلك يجب ألا يكون المرء متسكماً أحقق إذا أراد السعادة.

المعنى: الارتباط بما يهمنا.

لغز

حاولنا فيما مضى تأكيد أهمية الأخلاق، ولكن محاولة العيش بصورة جيدة من دون الانتباه للسلوكات والقيم يجعل الحياة صعبةً المنال، وبعيدةً عن أيّ من معاني الخير؛ فنحن لا نُعجَب بالأشخاص لأنهم ملتزمون فحسب، بل لأنهم يتحلون ببعض الصفات الحسنة، مثل: الود، وخفة الظل، والمرونة في التعامل مع الآخرين، وبعبارة أخرى نحن نحبهم لأنهم يتقنون

فن الحياة، وقد نسمع - أحياناً - مثل هذا الإطراء الجميل: «إنها تعرف حقاً كيف تعيش»، وقد نتعرّض في المقابل لأشد الانتقادات؛ لأننا نتصرف على نحو سهل لين، ما يمنعنا من إنجاز أعمالنا.

ومن الأمور الأخرى المهمة التي ينبغي مراعاتها في الحياة الجيدة التواصل مع الناس، وإيلاء الأشياء التي تخصصنا الاهتمام اللازم، فنحن لا نريد فقط أن نكون سعداء أو في حال جيدة، وإنما نريد أن نعيش حياةً مخطّطاً لها، وتستحق أن تُعاش، وقد لاحظنا أن ممارسة الأنشطة الهادفة قد تجعلنا سعداء، ولكنّ الأهم في ذلك أنها أشياء تستحق القيام بها، ناهيك عن السعادة التي تجلبها.

لقد أصبح السؤال عن معنى الحياة في السنوات الأخيرة مهمّاً للآباء والأمهات، فما السبب يا ترى؟ أظهرت نتائج بعض الدراسات أن إنجاب الأطفال لا يجعل الوالدين أكثر سعادةً، حتى إن ذلك قد يُسبّب لهما الإحباط، ويبدو أن هذه الدراسات لم تلقَ قبولاً من بعض الآباء والأمهات لعدم اقتناعهم بأن الأبناء يجعلون حياة والديهم أكثر سوءاً، وقد اعتدنا منذ سنوات عدّة أن نقصّ على أصدقائنا الذين لم يُرزقوا بأطفال حكايات عن السعادة الأسرية، أما الآن فإن هذا الأمر يبدو محرّجاً بعض الشيء.

قد لا تكون نتائج هذه الدراسات دقيقةً جدّاً، ولكنّ الظاهر أن الكثير من الآباء يشعرون بالسعادة حين يلتقون بأصدقائهم خارج البيت مساءً، قد يبدو هذا الأمر مُحيرّاً بعض الشيء؛ فإما أننا نعيش وهمّاً بأن الأطفال يجلبون السعادة إلى حياتنا، وإما أن وجودهم يمنحنا أشياء أكثر من مجرد

السعادة، فما هذه الأشياء؟ توجد حقيقة واضحة تُؤكِّد أنهم يجعلون لحياتنا معنىً آخر، فلنرَ ما ينطوي عليه هذا الأمر.

جذور المعنى: التقدير مقابل الإعجاب

لا يُنكر أحد أهمية العلاقات والأنشطة في تحقيق السعادة؛ فهي - في رأينا - تُعبِّر عن حالتنا الاجتماعية الفاعلة بصفتنا كائنات اجتماعية ووكلاء؛ محبوبون وفاعلون، وتعكس أهمية معنى السعادة جانباً ثالثاً للطبيعة البشرية؛ وهو أننا مقيِّمون، فنحن ننظر إلى الأشياء بحسب قيمتها، ثم نحكم عليها بالقبول أو الرفض، مثل حُب اقتناء الكلاب ورعايتها، ونحن أيضاً نقيِّم الأشياء لتحديد مدى أهميتها بالنسبة إلينا، والبحث عن طريقة مناسبة للتعامل معها؛ فمثلاً: قد تكون شخصاً نزيهاً، ولكنك تُفضِّل تقييم النزاهة، لا بوصفها قيمة يجب تمثُّلها فحسب، بل لأنها قيمة تستحق الحفاظ عليها.

وفي المقابل، قد ترغب في شيء من دون أن تقيِّمه؛ فالمدخن قد يحاول التوقف عن التدخين، لكنه يرغب في سيجارة من دون أن يجد سبباً مقنعاً لتعلُّقه بالسجائر، وقد تُحبّ التشيز ويز (Cheez Whiz) (رذاذ صناعي أصفر يوضع في علبة) الذي يبدو مذاقه لذيذاً بالنسبة إليّ، ولكنّ المتعة أو اللذة التي تشعر بها محدودة؛ إنها تمثِّل سروراً خالياً من أي معنى، لا أرى أن التشيز ويز مثير للشهية، ولن أستعين بشخص آخر ليساعدني على

تقييمه؛ فأنا فقط أحبه مثلما يحب كلبى الكيبلز⁽¹⁾ بالرغم من أنه ليس طعاماً مغذياً.

في يوم ما جلستُ أتناول وجبة من اللحم المشوي اللذيذ، وأدركت أن الانسحاب وترك هذه الوجبة ليس أمراً سهلاً، لا شك في أن من أشرف على عملية الشواء هو شخص موهوب؛ فقد كانت الوجبة شهية جداً، إنني أحب الأضلاع، ولكنني أيضاً أقدرها كثيراً، وكذلك أقدر براعة الطاهي، في حين لا يمكن لكلبي تقدير هذه الوجبة، وقد ينظر إليها في أفضل الأحوال بوصفها أحد أنواع الكيبلز، لقد وصل أحد أصدقائي الآن، وها أنا ذا أحاول أن أبين له ما شعرتُ به في أثناء تناول الوجبة، آملاً أن تحظى بتقديره مثلي؛ فهي ليست مجرد مناسبة لطيفة، وإنما وجبة مرضية ومجزية، وستصبح مرضية أكثر عندما يتشاركها مجموعة أصدقاء.

ومع أننا لا نتحدث عن وجبة عشاء بوصفها خبرة ذات معنى، ولا نعدّها - في الوقت نفسه - شيئاً عادياً لا قيمة له ألبتة؛ فإن تحظى بشرف مشاركة الآخرين في وجبة جيدة هو أمر له دلالات مهمة ولا شك.

إن الفرق بين تقدير الشيء والرغبة فيه لهو دليل على اختلاف المتع البشرية عن المتع الحيوانية الخالصة؛ أي التباين في الدلالة بين الرضا الكامل ومجرد التلذذ؛ فحين نُقدّر الشيء فإننا نعي قيمته المهمة، وإنه

(1) الكيبلز: طعام غير مُغذٍّ خاص بالكلاب. (الترجمة).

يستحق أن يُرغَب ويُطلَب، ولا ننظر إليه بوصفه شيئاً جيداً وحسب مثلما يحبُّ الكلب طعامه، وبذا يتبوأ التقدير مكانةً مهمةً في الحياة الهادفة، وهذا ما ستبيِّنه الصفحات اللاحقة.

معنى الحياة: الذاتية والموضوعية

لنبدأ بالجانب الذاتي لمعنى الحياة الذي يحمل بين ثناياه شعور المرء بأن لحياته معنى، وأنه يعيش فيها مُتمثلاً هذا الشعور. وفي رأيي، فإن ذلك يتضمن المشاركة الفاعلة الهادفة في هذه الحياة التي تستحق أن تُعاش؛ إنه شيء من التميز أو الجمال، أو القيمة الحقيقية للإنسان، وبعبارة أخرى تصبح حياتنا ذات معنى عندما نشاركها الأشخاص والأشياء التي تهمننا، فنشعر أنها جديرة باهتمامنا؛ إنه تعريف فضفاض بعض الشيء، ويمكننا بذل المزيد من الجهد لإيجاد تعريف أدق يساعدنا على بلوغ مرادنا في هذا الشأن.

لنأخذ مثلاً ستيفن داروول (Stephen Darwall)، الفيلسوف الذي تأثرت به كثيراً في هذا المجال، والذي وصف دانييل غولب عازف البيانو بمن يُخلق عالياً في سماء عالمه الخاص لشعوره بالنشوة في أثناء أدائه مقطوعةً مميزة؛ إنه نموذج رائع للمشاركة القيمة الفاعلة؛ فقد أدرك صاحبنا ما تُحدثه الموسيقى في النفس، واستمتع بتواصله مع هذه القيم التي تُمثل تجارب مهمة في الحياة، وأنا شخصياً أفضل هذا المثال، انظر الشكل رقم (12).



13- كيث ريتشاردز (Keith Richards)
أحد أعضاء فريق رولينغ ستونز (Rolling Stones).

افتراض أن حياتك مُفعمّة بالنشاط وحبّ العمل والطموح، فهل يعني هذا حقاً أنها كذلك؟ تخيل أنك ملك أرعن يعتریک شعور غامر بالرضا والسعادة عند سن قوانين جائزة وإصدار تشريعات عبثية، لكنك تعتقد بأهمية ذلك كله، فهل يمكن لحياتك أن تكون واقعيةً وعمليةً وفاعلةً؟ اختلف الفلاسفة في الإجابة عن هذا السؤال، ولكن لا يبدو منطقياً الادعاء بأن حياة كهذه تخلو من أي معنى وهدف؛ فحتى لو كانت تطلعاتك وطموحاتك لا تستحق العناء أبداً فهي تُعد قيمةً بالنسبة إليك.

إذن، لماذا نُصر على أن حياتك تخلو من أي معنى للحياة؟ قد يتعلق المعنى الذاتي بشيء ما،

هل ما زلتَ تتخبط في هذه الحياة بالرغم من وجود اهتمامات خاصة لك بها؟ إن جزءاً من معنى الحياة يتعلق بعمل أشياء تستحق الاهتمام؛ فعندما

اختار الناس مارتن لوثر كينغ أو الأم تيريزا للدلالة على الحياة المُفعمّة بالخير والعطاء، فربما لم يُفكروا بما فكّرنا به، ولكنّ الحقيقة الناصعة هي أنهما سخّرا حياتيهما لإنجاز عمل عظيم جعلهما يشعران بالفخر والرضا عن النفس؛ فأى حياة ترنو إلى تحقيق أهداف ورؤى مهمة هي حياة قيمة ولا شك.

وهكذا، فالحياة الهادفة قد تُعزى إلى التواصل مع ما تعتقده قيمًا، والتواصل مع كل ما هو قيم حقًا. ندعو ذلك بالمعنى الذاتي والموضوعي على التوالي؛ ففي الحياة الهادفة يجتمع هذان المعنيان (الذاتي، والموضوعي)، ويظهران جليًا في أفعال المرء وتصرفاته، وهذا يُؤكّد أن ما يمنح الحياة معناها هو مشاركة ما هو جدير بالاهتمام، وفي ذلك تقول سوزان وولف (من الفلاسفة المعاصرين): «ينشأ المعنى عندما يلبي الانجذاب الذاتي الجاذبية الموضوعية».

يُذكر أن الحياة قد تكون هادفةً وذات معنى بعض الشيء من دون توافر النظرة الذاتية الشخصية؛ فقد نقوم بأشياء جيدة من دون أن نشعر بقيمتها، وكذلك الحال بالنسبة إلى النظرة الموضوعية؛ فقد نكتشف زيف ما كنا نعتقد بأهميته من أنشطة وممارسات وسلوكات، وفي كلتا الحالتين، فإن اختفاء هاتين النظرتين من الحياة يُفقدّها الكثير من معانيها.

أهمية المعنى في الحياة

لا يختلف اثنان على أهمية المعنى في الحياة. ولكن، ما سبب هذه الأهمية؟ ما مصدرها؟ كيف يمكن للمعنى أن يجعل حياتنا أفضل؟ أوضحنا

في الفصل الخامس أن الأنشطة الهادفة هي مصدر السعادة الرئيس، ونعتقد أن الحياة تكون مُفَعَمَةً بالمشاعر والعواطف فقط حين يُخَطَّط لها ما يبدو مهمًّا بالنسبة إلينا، قد نعتقد أن العاطفة الجياشة هي مزيج من الفرح والانسجام الذي مرده مشاركة كل ما نراه مهمًّا؛ فالفرح يُعزى إلى حدوث الأشياء الجيدة، أما الانسجام فمرده إدراك المرء أنه يتصرف ويعيش على النحو الصحيح في هذه الحياة؛ إنه إحساس بالكمال أو الامتلاء، ولكنَّ السؤال الذي قد يتوارد إلى الذهن هو: كيف يمكن للمرء إدراك هذه الحالة من دون الشعور بأهمية حياته؟

وعلى كلِّ، فالسعي وراء ما هو مهم في الحياة لا يجعلنا دائماً أكثر سعادة؛ نظراً إلى صعوبة ذلك وتعذره أحياناً؛ فقد يعيش الفنان أو الباحث أو السياسي حياةً تزخر بالكثير من المعاني، لكنَّها تخلو من السعادة، والأمر نفسه ينطبق على الأطفال؛ فَهَمَّ لا يجعلوننا سعداء دائماً، حتى لو أضافوا معنىً إلى حياتنا، إذن، كيف نجعلهم يُدخِلون البسمة والفرح والسعادة إلى قلوبنا؟

قد يكون ذلك ممكناً إذا عمدنا إلى خوض خبرة ذات معنى؛ فهي لا تتطوي على السرور فحسب، بل تحمل في طياتها الكثير من المعاني الإيجابية، وحسب التجربة أنها تُضفي على حياتنا معاني وقيماً مهمة إذا لم تتجح في منحنا السعادة التي نريد.

يسود اعتقاد بأن الحياة الهادفة التي تُخفي في مكنوناتها الكثير من المعاني والدلالات هي حياة ناجحة، فعند أداء المرء أنشطة وممارسات فاعلة مؤثرة فإنه يُحقِّق قدرًا من النجاح فيها؛ فأن تكون أباً، أو صديقاً

جيداً، وأن تساعد الآخرين، وتضيف شيئاً جميلاً إلى حياتهم، أو تسهم في مجال المعرفة البشرية أو الرياضية، كل ذلك يجعل حياتنا أفضل بصرف النظر عن السعادة التي تجلبها لنا.

ختاماً، إذا لم تستطع أفعاننا وممارساتنا منحنا السعادة في الحياة فإنها تبقى جديرةً باهتمامنا؛ فقد يعاني الكثير من أصحاب الآراء المتزمتة نتيجةً لمواقفهم ورواهم في هذه الحياة، ولا شك في أن بعضهم كان ليعيش حياةً أفضل لو قام بشيء آخر، ولكن صراعهم هذا قد يضيف قيمةً كبيرةً إلى المعاني والقيم التي يؤمنون بها في حياتهم؛ سواء أُمفيداً كان ذلك أم لم يكن؛ لأن الأمر يُستحق أن يُخاض فيه.

الخلاصة

إذا كنت مُحققاً فيما تقوم به فإن ذلك يُثري حياتك، ويُحفّزك إلى بذل المزيد للاهتمام به؛ ما يسهم في جعل الحياة أكثر عطاءً وأهميةً، إن هذا النوع من المثل قد نجدّه في الديانات الرئيسة جميعها؛ فالقديس توما الأكويني -مثلاً- رأى المثل البشري الأعلى في (الرؤية الإشرافية)؛ أي إن هدفنا الرئيس في الحياة هو الاقتراب من الخير ما أمكن.

المعنى والحياة العصرية: المُقدِّرون⁽¹⁾ والأستهلكون

سنبحث الآن في كيفية تمثّل هذه المعاني في حياتنا اليومية، لا شك في أن المثالية في التواصل تختلف عن المثالية فيما تصبو إليه، وربما أجمع

(1) المُقدِّرون والأستهلكون: أشخاص يُقدِّرون الأشياء حق قدرها في الحياة. (الترجمة).

الحدثيون - منذ هوبز - على هذه النظرة. ناقشنا فيما مضى الجهود التي بذلها دارول لتقصي الأفكار التي طرحها أرسطو بخصوص نظرة البشر إلى الأشياء وتقديرها (تحديد كُنْه الأشياء، ومنحها قيمةً مُحدَّدةً)، وسعيهم إلى تحقيق ما يهمهم منها. فقيمة الأشياء هي أمر لا يخضع لأهوائنا، وإنما نكتشفه وحدنا، ونحن نحاول جاهدين إبقاء أعيننا مشدوهةً نحو رغباتنا، ولا نتركها تُبعدنا عما يهمنا حقًا، ونسعى دائمًا إلى النهل من معين العلم والمعرفة ليتسنى لنا تقدير الأشياء حق قدرها، وإثراء حياتنا العملية، وبعبارة أخرى فإن المثالية تكمن في بحثنا عن المشاركة الفاعلة في الحياة، وإيلائها الأهمية اللازمة.

إننا - بحسب نظرة هوبز التي يُمثلها اقتصاد اليوم - أصحاب رغبات شرهةً همُّها الوحيد الشبع والشعور بالتخمة، أو - على الأقل - إبعاد شبح الجوع عنا، كأننا كائنات أشبه بالحلزونات البشرية، (معدَّةٌ بسيقان)، فتحن نخضع لرغباتنا ونستسلم لها، وحالنا هذا أشبه بحال الكلاب الذكية التي تطارد طعامها ولا تشبع أبدًا؛ لذا يجب تمحيص الأشياء، وتثقيحها، وتشذيبها، وتحسينها.

ينظر أتباع هوبز إلى العالم بوصفه قطعة حلوى يسعى الجميع إلى التهامها إشباعًا لرغباتهم وأهوائهم، أو على الأقل فأنت لا تتواصل مع الآخرين وإنما تعقد معهم الصفقات، تذكر أن لا علاقة للتقدير بهذا الشأن، فكل ما عليك فعله هو أن تطلب وحسب، والوصف المناسب لك في مثل هذه الحالة النهمة هو المستهلك.

بدأتُ أولاً بالتمييز بين المُستهلكين والمُقدِّرين في سنوات إجازتي، فلاحظتُ انقساماً في الطريقة التي ينتهجها السياح للاقتراب من المكان، حيث أظهر الكثير من المُقدِّرين قدرةً على استشراف المكان الذي وصلوا إليه، فتكيفوا معه، واستمتعوا بموجوداته كما هي، في حين أبدى الآخرون من المُستهلكين امتعاضهم من المكان، ونظروا إليه بوصفه وسيلة لتسليتهم، والترويح عن أنفسهم فحسب، وقد ضج المكان بالكثير من تعليقاتهم (مثل: ماذا؟ لا يوجد ملعب غولف؟ لماذا لا أجد هنا قهوةً (كابتشينو) لذيذة؟ أشعر بالملل، لا شيء يمكنني فعله هنا)، ولم يحفلوا بوجودهم في واحدة من أجمل بقاع الأرض، يطؤون بأقدامهم مدافن إحدى العائلات لالتقاط صور مميزة، بالرغم من وجود لافتة مكتوب عليها (ممنوع المرور)، انظر الشكل رقم (13) الذي يُظهر سياحاً يلتقطون صوراً تذكاريةً مع الرهبان البوذيين في أثناء مسيرهم اليومي. أعتقد أنه توجد أشياء قد تُضفي على الحياة معنىً أدق (مثل: الكرامة، والفرح) مقارنةً بهذه الرغبات الاستهلاكية: ما يعني أن الأفضل للإنسان أن يكون مُقدِّراً لا مُستهلكاً.



14- سياح يلتقطون صوراً تذكاريةً مع رهبان في مدينة لوانغ برابانغ، لاوس.

لحسن الطالع، فإن قلة من الناس قد تبنت في حياتها وجهة نظر هوبز القاتمة؛ فنحن نولي قيمة لما نؤديه في حياتنا اليومية من أعمال جيدة، وهوايات، ورياضات، وفنون، واستمتاع بالطبيعة والجمال، والأهم من ذلك كله التواصل مع الآخرين. وفي واقع الأمر، فإن مختلف الأنشطة التي نود القيام بها تُضفي على حياتنا بعضاً من المعاني؛ ففي اقتصاد السوق - مثلاً - يُعد معظم العمل مدفوع الأجر هو الأكثر جدارةً واستحقاقاً إلى درجة معينة ما دمت تتعامل بأمانة، وبالنسبة إليّ مررتُ بواحد من أكثر فصول حياتي معني حين تمكّنتُ من دفع الفواتير خاصتي، وفي سن السادسة عشرة حُزمت أمتعتي، وذهبت إلى ولاية أخرى حيث استأجرتُ سريرًا في غرفة لفصل الصيف، وعملتُ في تنظيف الطاومات في أحد المطاعم؛ فأنت تعيل نفسك هو عمل مهم يجعل لحياتك معنى ولا شك، وحين تبيع الأحذية فأنت لا تكسب المال لنفسك وعائلتك فحسب، بل تُقدّم عملاً مهمًا لرب العمل والزبائن، زد على ذلك أن راتبك يُمثّل القيمة التي تُقدّمها للآخرين؛ كل هذا جدير بالاهتمام، وذو معنى.

وبالمثل، فقد ترى شيئاً يُعجبك في مباراة كرة قدم جميلة، فتشعر بأهمية هذه اللعبة، ويتولد لديك إحساس بالإشباع، وقد تجد أن مجرد متابعة إحدى مباريات كرة القدم في التلفاز تُشعرك بهذا الإشباع، وفي هذه الحالة فأنت لا تبحث فقط عن المتعة، وإنما تنظر بعين الرضا والإعجاب إلى مهارة الرياضيين، ولا يختلف الأمر عن تقديرك للباليه أو الأوبرا، ولا

شك في أن ممارسة نشاط معين هي أكثر إشباعاً من متابعتها وتقديره عن بُعد، ولكن يمكنك في كلتا الحالتين أن تشارك في النشاط؛ إما ممارساً له، وإما مراقباً له.

ولعل أهم صور المشاركة الفاعلة هي المشاركة الاجتماعية، مثل: التحدث إلى الآخرين ومشاركتهم بعض الأعمال، وتقديم بعض الخدمات لهم، وقد يبدو ذلك صعب المنال إذا كان المرء مريضاً نفسياً؛ فعندئذٍ لا يمكنه المساعدة، ولكن عليه أن ينظر إلى قيمة مساعدة الآخرين، ويستجيب لهم بصورة مناسبة.

ينظر معظمنا إلى الناس بوصفهم مصدر القيمة الرئيس، ويتطلب تفاعل بعضنا مع بعض قدرًا كبيرًا من الحساسية والفتنة والمهارة والتطور؛ نظرًا إلى تعقيد السلوك الاجتماعي البشري، وإن كانت الأمور لا تبدو دائمًا على هذا النحو؛ لأن البشر يجيدون القيام بها، وفي المقابل قد يُعدُّ الحوار والحديث العابر فنًا أصيلاً يتطلب حنكةً وذكاءً.

قد يكون الخروج مع الأصدقاء عملاً مهمًا يبعث على الشعور بالإشباع حين تقوم بشيء ما لأجلهم. ولما كانت غالبية الناس تحظى بحياة اجتماعية فإنه لا يلزمها تحقيق إنجاز عظيم لتعيش حياة سعيدة زاخرة بالمعاني، علمًا بأن بعض الأشخاص يعيشون حقًا حياةً استهلاكيةً نمطيةً فارغةً تخلو من أي هدف أو معنى.

الخلاصة: موقع السعادة في الحياة الجيدة

لا يمكنني الجزم بأنني سرّدت أسباب الحياة الجيدة جميعاً، ولكنني أرى أن السعادة هي أحد هذه الأسباب لا جميعها، ولا ننسى ذلك الأمر المهم المتصل بالرفاه؛ إنه الفضيلة التي تُعد أبرز أولوياتنا في هذه الحياة؛ فأن تعيش حياةً هادفةً يعني تأثير الرفاه والفضيلة في حياتك. هل يعني هذا أن السعادة أمر غير مهم؟ لا، فهي مهمة ولا شك، شأنها في ذلك شأن الصحة؛ فبالرغم من أن الأمر لا يقتصر فقط على الصحة، فإن الجميع يُقِرُّ بأهميتها. لنتذكر سريعاً ما قلناه عن مجتمعاتنا الخيالية (إيدونيا ومالدونيا) في الفصل الرابع، هل ترى أن العيش في هذا المجتمع أو ذاك سيان؟ صحيح أن السعادة ليست هي كل شيء في هذه الحياة، ولكن أهميتها واضحة للعيان، فالمجتمع الذي يشبه مالدونيا يعاني مشكلات خطيرة جداً.

يؤكد هذا الفصل (والفصل الأخير أيضاً) وجود اختلاف في عناصر الحياة الجيدة، مثل: السعادة، والأخلاق، ولكن الثابت أن الحياة السعيدة تمنحنا غالباً حياةً جيدةً، فلو نظرنا إلى صورة المرأة الشابة في الشكل رقم (14)، ما استطعنا أن نُحدِّد بدقة إذا كانت سعيدةً أو أنها على ما يرام فحسب، ولكنني أعتقد أن الصورة توحي لك أول وهلة أنها سعيدة، وأنها تعيش حياةً جيدةً. وبوجه عام، فإن الأشخاص الأنانيين، والسطحيين، وأولئك الذين يختلفون عن المرأة التي في الصورة؛ كل هؤلاء لا يبدوون سعداء مطلقاً بالنسبة إلى معظم الناس.



15- امرأة شابة من التيب.

كان توماس ميتي، وهو طبيب يعيش في مدينة كليفلاند بولاية أوهايو، واحداً من أسعد الأشخاص الذين عرفتهم في حياتي، وقد أحب كل من حوله، وحرص على إسداء الخدمات لهم، ولا سيما المرضى الذين أشرف على علاجهم في المستشفى؛ فما إن يمر بغرفهم حتى تتحسن حالتهم النفسية، وقد يجعلك تضحك حتى لو كنتَ على فراش الموت، لقد مثل هذا كله سبب سعادته الرئيس في هذه الحياة، شأنه في ذلك شأن الكثير من الأشخاص السعداء الذين قابلتهم في حياتي.

كان ميتي يتلمس جانب التميز لكل مريض، ثم يعرف بحدسه ما يحتاج إليه، وما يجب أن يسمعه، كان بإمكانه إلقاء محاضرة صارمة عن ضرورة فقدان الوزن أو الإقلاع عن التدخين من دون أن يُشعرك بحاجة إلى الدفاع عن موقفك، وقد أيقن أن العائلات تحتاج إلى الرعاية والمشورة

مثلما يحتاج إليها المرضى، وأنا واثق أنه أسهم في المحافظة على أواصر العديد من الأسر في أصعب مراحل حياتها؛ فقد يذهب إلى منزل المريض ليلاً إذا لزم الأمر، وقد يُغفل القانون أحياناً ليساعد المريض على نيل ما يريد؛ بأن يعطي المريض بعض معدات المستشفى ليتمكن من انتظار الموت في منزله، وعلى فراشه الخاص.

وإذا عرف توماس أن المريض يحب زهرة ما أتى بها، ووضعها على صدر المريض في دقائقه الأخيرة، فتأخذ أوراق هذه الزهرة ترتفع وتنخفض مع أنفاس المريض المُجهدّة، وحين تتوقف عن الحركة يعرف المرضى الآخرون في الغرفة أنه قد فارق الحياة. لقد توفّي الطبيب توماس، وآمل أن أحظى برعاية أحد الأطباء الذين تدرّبوا على يديه، وعلى الرغم من أننا في شهر فبراير فإن الأزهار التي أرسلها إلى حديقتنا (النرجس البري هو الزهرة المُفضّلة لدى والدتي، والتوليب هو زهرة والدي المُفضّلة) قد بدأت تطل من تحت التربة.